الماركسية في الفكر العربي المعاصر

سأتناول في هذا العرض (1) نقطتين رئيسيتين :

- حضور الماركسية في الفكر العربي المعاصر .
- بعض معالم الاشكالية التي يطرحها الواقع العربي على الماركسيين العرب .

لنحدد أولا الفكر العربي **المعاصر** في الزمان ، ولنبادر الى القول اننا نقصد به مجمل التيارات الايديولوجية التي عرفها الفكر العربي منذ **أوائل الخمسينات** .

لماذا هذا التأريخ بالضبط ؟

لنرجيء الجواب عن هذا السؤال الى حين الانتهاء من تحليل النقطة الاولى . فمن خلال هذا التحليل ستتبين لنا المعطيات التي تبرر هذا التحديد . ولكن هذا لا يمنعنا من ابداء ملاحظتين يمكن اتخاذهما ، في آن واحد ، كمنطلق لهذا التحليل ، وكمبرر لذاك التحديد .

هاتان الملاحظتان هما :

— انه ابتداء من أوائل الخمسينات فقط بدأت تتردد في العالم العربي — في المشرق خاصة — أصداء تلك الدعوة التي قامت في الغرب منذ عقود من السنين ، والتي تنادي بأن « الماركسية في حاجة الى ماركس جديد »!

(1) شاركنا بهذا العرض في ندوة نظمها اتحاد كتاب المغرب بالرباط . مارس 1970.

— انه ابتداء من أوائل الخمسينات فقط اخذت تظهر ، فى الوطن العربى ، المفارقة التالية ، وهى أنه : بمقدار ما اخذت الماركسية تنتشر وتوسع من دائرة نفوذها فى الفكر العربى ، بمقدار ما اخذت الشيوعية كانتماء حزبى أممى تفقد أنصارها وتتقلص قواعدها فى صفوف الجماهير العربية (نقصد هنا التقلص النسبى) .

* * *

ان القول بأن « الماركسية فى حاجة الى ماركس جديد » لا يتضمن فى نظرنا أى قدح أو تنقيص من اهميتها ، وان كان كثير ممن أطلقوا هذا الشعار فى الغرب قصدوا به الاساءة اليها والاشارة الى انها لم تعد صالحة . ان الماركسية هى دوما « فى حاجة الى ماركس جديد ! » ، اى الى من يطبقها على التطورات الجديدة والخصوصيات المحلية . لقد كانت فى حاجة الى لينين ليطبقها على المجتمع الروسى الذى كان متخلفا عن أوروبا ، وعلى التطورات التى عرفتها الرأسمالية بعد ماركس . وكانت فى حاجة الى ماو تسى تونغ ليطبقها على الخصوصية الصينية ، كما كانت فى حاجة الى تيتو وغرامشى وغيرهم .

نعم لقد تعرضت « الماركسية الرسمية » فى العهد الستالينى الى نوع من الجمود ، وهذا فعلا ما تبرر به الدعوة الى ضرورة تجديد الماركسية ، الى ضرورة كسر القوالب الستالينية . ولكن هذه الدعوة التى انتشرت فى الغرب فى اواخر العهد الستالينى لم تتردد اصداؤها فى العالم العربى الا بعد وفاة ستالين .

لمـــاذا ؟

لانه فى ذلك الوقت فقط بدأ الاهتمام الجدى بالماركسية الاصلية « ماركسية الاصول والمنابع » لدى المثقفين العرب ، ولم يكن هذا الاهتمام بسبب وفاة ستالين ، فهذا حدث عرضى بالنسبة للقضايا العربية ، وانما كان هذا الاهتمام راجعا الى التطور الذى عرفته القضايا العربية منذ أوائل الخمسينات . نعنى بذلك حصول معظم الاقطار العربية على استقلالها ، الشىء الذى جعل التناقض بين شعوب هذه الاقطار وبين الاستعمار يخف نسبيا ليفسح المجال للتناقضات الاجتماعية التى بدأت

تتحرك آنذاك بشكل اقوى مما كان عليه الامر من قبل . أضف الى ذلك اثر الصراع العالمي ، الصراع بين المعسكر الغربي الامريكي ، والمعسكر الاشتراكي . انه التطور الذي نقل اهتمام الوعي العربي من المشكل الوطني (الاستقلال) الى المشكل الاجتماعي (بناء الاستقلال) ، ومنه الى الاختيارات الايديولوجية ، وهو أيضا التطور الذي حدث عقب ضياع فلسطين وقيام الدولة اليهودية ، وما كان لذلك من تأثير وانعكاسات على القضية القومية الاساسية ، قضية الوحدة العربية ، وعلى قضايا أخرى من بينها الموقف من الصراع العالمي والتحالفات الدولية .

على أن القول بأن « الماركسية في حاجة الى ماركس جديد » ، اي الدعوة الى فهم « جديد » للماركسية مستوحى من الواقع العربي ، او فهم الواقع العربي فهما مستوحى من ماركسية ماركس وانجلز ولينين ، لم يتردد صداه في العالم العربي بسبب التطورات المشار اليها وحسب ، بل ايضا بسبب فشل الاحزاب الشيوعية العربية وتوالي النكسات عليها نتيجة مواقفها « اللا قومية » وتبعيتها المطلقة الى المراكز التي تتلقى منها التوجيه : باريس وموسكو خاصة .

ان هذا يدفعنا الى الخوض في تاريخ هذه الاحزاب الى الانتقال الى الملاحظة الثانية ، الى استكمال عناصر النقطة الاولى ، وهي كلها جوانب مترابطة متداخلة .

* * *

ان الحديث عن الماركسية في بلد من البلدان لا ينفصل ولا يمكن أن ينفصل عن التعرض بشكل من الاشكال الى الاحزاب الشيوعية فيها، ذلك لان المجال التقليدي لنشاط الرجل الماركسي سواء على صعيد الفكر أو صعيد الممارسة هو الحزب الشيوعي بالذات . ولذلك ، فان البحث في حضور الماركسية في الفكر العربي يضطرنا الى الحديث عن تاريخ الاحزاب الشيوعية العربية : تطورها ومجالات نشاطها . فلنرجع اذن، الى تاريخ هذه الاحزاب ، ولنتساءل : لماذا انحسر نشاطها وتقلصت قواعدها — نسبيا — في الوقت الذي اخذت فيه الماركسية تغزو الفكر العربي بشكل لم يسبق له مثيل ؟ لماذا لم تنجح هذه الاحزاب في تحقيق

اهدافا — ولو نسبيا — فى الوطن العربى ، رغم حضورها الذى يمتد انى اكثر من نصف قرن من الزمان ؟

نعم هذه مسألة عامة يمكن طرحها ، لا فى الوطن العربى وحسب ، بل ايضا فى كثير من البلدان التى عرفت احزابا شيوعية ، ذات تاريخ نضالى مديد ، كبلدان أوروبا الغربية مثلا ؟ ولكن رغم عمومية السؤال، هناك خصوصية فى الجواب ، الشىء الذى يجعل طرحه فى الوطن العربى ذا مغزى خاص . انها خصوصية نابعة من العوامل الذاتية والموضوعية التى تسببت فى هذه الظاهرة التى عانت منها ، وما تزال تعانى من آثارها ، الحركة الشيوعية العالمية فى الوطن العربى .

فما هى هذه العوامل ؟

من الناس من ينظر الى عامل الدين مثلا فيتخذه العامل الرئيسى فى « فشل » الاحزاب الشيوعية العربية . ان الدين الاسلامى ، فى نظر هؤلاء يرفض الشيوعية ، والاغلبية الساحقة من الجماهير العربية تدين بالاسلام وتتمسك به ، ولذلك فلا مناص من رفض هذه الجماهير للشيوعية رفضا نهائيا .

ومن الناس من ينظر الى الشيوعية كشجرة غريبة عن الوطن العربى واهتماماته ، استوردت من الخارج . وبما أن التربة التى يراد زرعها فيها ، غير التربة التى نبتت فيها ، فانه من « الطبيعى » ان تذبل هذه الشجرة . ان هذا الفريق من الناس يبرر دعواه هذه بكون الشيوعية حركة بروليتارية عالمية تناهض القوميات .. وبكون الارض العربية أرضا قومية .. ومن ثمة فلا يمكن أن تكون استجابتها لها سوى الرفض والنبذ .

وربما ينظر فريق ثالث من الناس الى الاضطهاد المستمر واساليب القمع المتواصلة التى تعرضت لها الحركات الشيوعية فى الوطن العربى من طرف الاستعمار أولا ، ثم من طرف الحكم الوطنى الذى سيطرت عليه الاوساط البورجوازية القومية والدينية ثانيا ، فيتخذ من ذلك العامل الاساسى فى الظاهرة التى نحن بصددها .

والواقع أن القول بأن الشيوعية انما فشلت فى الوطن العربى ، لان

العرب متمسكون بدينهم او متعصبون لقوميتهم ، او لانهم سلطوا عليها اجهزة حكمهم ، قول فيه تبسيط كبير للامور . نعم قد يكون الدين او القومية او القمع من العوامل التى ساهمت فى شـل الحركة الشيوعية العربية ، ولكن مع ذلك فانه من غـير المعقول ان تكون هذه العوامل منفردة او مجتمعة هى وحدها المسؤولة عن هذا الشلل ، بل اننا نرى ان مسؤوليتها جزئية ثانوية . وذلك :

1 — لان التمسك بالدين او بالقومية ، او بهما معا ، ليست ظاهرة خاصة بالمجتمع العربى وحده . فلقد نجحت الشيوعية او حققت نجاحات مهمة فى بلدان اخرى لم يكن تمسك أهلها بدينهم وقوميتهم أقل من تمسك العرب بهما . فعلاوة على روسيا والصين ، هناك يوغسلافيا وكوبا ومناطق اخرى من آسيا حققت فيها الاحزاب الشيوعية نجاحات كبيرة — او نسبية — رغم الشعور القومى والدينى .

2 — لان بعض الاحزاب الشيوعية العربية قد عرفت ، هى نفسها، خلال فترات من تاريخها ، نجاحا ، بـل انتشارا واسعا نسبيا ، فى صفوف الشعب العربى ، رغم تمسكه الدائم بدينه وقوميته . بل لقـد شهدت بعض هذه الفترات تحالفات سياسية بـين التكتلات الشيوعية والاحزاب الوطنية القومية وبينها وبين التكتلات الدينية .

3 — لان القمع الذى تعرضت له الاحزاب الشيوعية فى الوطـن العربى ، لم يكن اشد ولا اعنف من القمع الذى تعرضت له زميلاتها فى بلدان اخرى نجحت فيها نجاحا ملموسا ، بل انه لم يكن اعنف ولا اشد من القمع الذى تعرضت له بعض الاحزاب اللا شيوعية سواء ايام الحكم الاجنبى أو خلال الحكم الوطنى ، ومع ذلك استطاعت الصمود والتوسع واكتساح اوسع الجماهير الشعبية .

نعم لقد نجح الاستعمار واساليبه الدعائية الجهنمية فى ترسيـخ صورة مشوهة عن الشيوعية فى اذهان الجماهير العربية ، حتى غدت كلمة « الشيوعية » بعبعا يخيف الفقير اكثر مما يخيف الغنى ، بعبعا مقترنا فى ذهنية الجاهير العربية بكل ما هو مضاد لعواطفها ومطامحها ومقوماتها . لقد نجح الاستعمار فى هذا الى درجة أنه اخذ يستغل هذه الصورة المشوهة المخيفة فى محاربته للحركات الوطنية القومية المطالبة

بالاستقلال ، حتى البورجوازية منها او السلفية . فلم تتردد الدعاية الاستعمارية فى وصف هذه الحركات بـ « الشيوعية » ، محاولة منها حمل الجماهير على الانفضاض من حولها والتخوف من اهدافها « الحقيقية » ، الشيء الذى تفعله الرجعية اليوم بالنسبة للحركات الوطنية التقدمية . لقد تمكنت الدعاية الاستعمارية فعلا من جعل الجماهير العربية تنفر من كلمة « شيوعية » اكثر من نفورها من اى شيء آخر ، حتى الاستعمار نفسه . وما زالت آثار هذه الحرب البسيكولوجية الاستعمارية باقية الى اليوم .

ولكن ، مع ذلك كله ، فان العوامل المذكورة لا تكفى فى تفسير الظاهرة التي نحن بصددها ، بل لابد أن تكون هناك عوامل ذاتية فى الحركة الشيوعية العربية هى التى لعبت الدور الاساسى فيما اصابها من انحسار وتقلص ، هى التي مكنت العوامل المذكورة من أن تفعل فعلها بشكل اقوى مما كان سيحصل لو لم تكن تلك العوامل الذاتية قائمة موجودة.

وفيما يلى ابرز هذه العوامل الذاتية :

1 ــ من البداية كانت العزلة : معروف تاريخيا أن الحركات الشيوعية فى العالم العربى ، قد قامت عقب الثورة البلشفية مباشرة : ففي مصر بدأت التشكيلات الشيوعية الاولى عام 1920 ، وفى لبنان تأسست فى نفس السنة عصبة شيوعية كانت تحمل اسم سبارتاكوس، ثم تحولت هذه العصبة الى حزب شيوعي عام 1924 ، بينما تأسست فى نفس الوقت تشكيلات شيوعية فى سورية . وفى هذه السنة ايضا ، اى فى عام 1924 تأسس الحزب الشيوعي الفلسطيني ، كما قامت فى المغرب العربى ، فى الوقت ذاته ، فروع محلية للحزب الشيوعى الفرنسى الذى أسس عام 1920 . واخيرا استكملت الحركة الشيوعية العالمية تغطيتها لاهم اقطار العالم العربى بتأسيس الحزب الشيوعي العراقى عام 1934 ، ثم بقيام تشكيلات شيوعية فى السودان منذ اوائل الاربعينات .

لقد قامت الحركات الشيوعية فى العالم العربى ، اذن ، فى وقت مبكر ، اى فى نفس الفترة التي تأسست فيها الاحزاب الوطنية والحركات

الاصلاحية . بل يمكن القول بصفة عامة أن الاحزاب الشيوعية كانت أول نشاط سياسى حزبى منظم قام فى الوطن العربى . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الظروف الزمانيـة المواتية ، فلقد بقيت الحركات الشيوعية العربية ، لحقبة طويلة من الزمن ، غريبة منعزلـة عـن صفوف الجماهير العربية . ذلك لان جميع هذه التشكيلات والاحزاب ، انما تأسست ونشأت بين صفوف الاجانب والاقليات العرقية والدينية التى كانت تعيش منعزلة شبه منغلقة فى المدن العربية . وغالبا ما كان قادة هذه الجماعات الشيوعية الاولى من هذه الاقليات نفسها .

ففى مصر كانت الجماعات الشيوعية ونواديها الثقافية تتكـون وتمول من الاجانب المقيمين بها اقامة مؤقتة والاجانب المتمصرين ومن اليهود خاصة . أما فى لبنان فلقد كانت عصبة سبارتاكوس التى أشرنا اليها جمعية أرمينية ، كما كان مؤسسو الحزب الشيوعى الفلسطينـى جماعة من اليهود الروس. واما فى المغرب العربى فمعروف ان الحركة الشيوعية فى اقطاره الثلاثـة انما تأسست على أيدى المستوطنيـن الفرنسيين — والاوروبيين عامة — وانها كانت لفترة من الزمن تابعـة للحزب الشيوعى الفرنسى .

أضف الى ذلك أن الشيوعيين العرب ، فى هذه الفترة ، وكذا فى فترة لاحقة ، تمسكوا تمسكا أعمى بنفس المفهوم التنظيمى للاحزاب الشيوعية فى الغرب : فالحزب الشيوعى هو حزب الطبقة العاملة ، ولذلك اقتصر نشاطهم انذاك ، وحتى بعد أن تعريت أحزابهم ، على العمل داخل بعض نقابات العمال وفى اوساط بعض المثقفين . لقـد اغفلوا الجماهير العربية الكادحة ، الواسعة ، التى تتكون فى معظمها — وما تزال — من الفلاحين وفقراء القرى والمدن .

والنتيجة هى أن قيام الحركات الشيوعية العربية وسط أقليات وفئات أجنبية وشبه أجنبية ، واقتصار نشاطها على دوائر محدودة من العمال والمثقفين ، قد جعلها ، منذ البداية فى وضعية لا تساعدها على النمو السريع المتواصل ، ولا على تفهم مشاكل الجماهير العربية وآمالها وطموحاتها ، الشىء الذى سيؤثر فى مواقف القادة الشيوعيين العرب ، الذين كانوا ينظرون الى الواقع العربى بمنظار الستراتيجيـة العامة للحركة الشيوعية العالمية .

2 — مواقف لا تعبر عن المطامح القومية : تمكنت الحركات الشيوعية العربية من كسر طوقها والتسرب شيئا ما الى صفوف الجماهير العربية ، بدرجات متفاوتة ، فاخذت تتعرب قممها وقواعدها، وخاصة بعد بداية الثلاثينيات . ومع ذلك ، بقيت خاضعة ، او على الاقل تابعة لمراكز توجيهها . وهي باريس وموسكو ، بكيفية خاصة ، الشيء الذى جعلها تظل بعيدة عن اهتمامات الجماهير العربية ، وعاجزة عن النفاذ الى قلب الضمير العربى الذى كان مشغولا فى ذلك الوقت ، لا بقضايا « السلم » ، ولا بمسائل « الصراع الطبقي » ، بل بقضايا التحرر الوطنى ، قضايا النضال ضد الاستعمار وضد التسرب الصهيونى الى فلسطين .

ان ارتباط الاحزاب الشيوعية العربية بالحزب الشيوعى الفرنسى فى فترة انضال ضد الاستعمار الفرنسى قد جعل موقفها من قضية الاستقلال موقفا مائعا واحيانا منحرفا : فلقد تبنى الشيوعيون فى الجزائر فى فترة من فترات تاريخهم ، شعار « الامة الجزائرية الفرنسية الموحدة » فى وقت طرحت فيه الاحزاب الوطنية الجزائرية شعار الاستقلال عن فرنسا . بل ان اثر هذا الارتباط باستراتيجية الحزب الشيوعى الفرنسى قد بقى واضحا فى مواقف الحزب الشيوعى الجزائرى الى سنة 1950 ، وهى السنة التى اشتد فيها النضال الوطنى فى المغرب العربى ضد الاستعمار الفرنسى . ففى هذه السنة لم يتردد الكاتب العام للحزب الشيوعى الجزائرى آنذاك من التصريح فى محاضرة له قائلا : « ان النضال من أجل السلم هو اقصر طريق واقلها كلفة نحو التحرر الوطنى » !

ونفس الشيء تقريبا حدث فى الشرق العربى : ففي أوائل الثلاثينات، وخلال تلك السنوات التي شهدت حركة نضالية واسعة من أجل التحرر والاستقلال فى سورية ، طرح الحزب الشيوعى السورى شعار التحالف مع فرنسا ضد الفاشية ، ناظرا هكذا الى نضال الشعب السورى من أجل التحرر من الاستعمار الفرنسى نظرة خارجية . نظرة الحزب الشيوعي الفرنسى ذاته .

هذه نماذج من مواقف الشيوعيين العرب من قضية الاستقلال اما بالنسبة لمواقفهم من قضية فلسطين ، فيمكن القول بكيفية عامة

ان الاحزاب الشيوعية العربية لم تتفهم حقيقة هذه القضية من المنظور الوطني القومي الا في فترة متأخرة جدا . فالحزب الشيوعي الفلسطيني، مثلا ، قد اعتبر انتفاضات الجماهير العربية في فلسطين ضد التسرب الصهيوني قبل عام 1948 ، حركة « لا سامية » ، واتخذ شعارا له « التآخي بين العرب واليهود » . أما في سورية فان حزبها الشيوعي ظل ينظر الى القضية الفلسطينية لمدة طويلة كقضية هامشية ، متبنيا موقف الاتحاد السوفياتي وستراتيجيته العامة ، مما كانت نتيجته تعرضه لنكسة خطيرة عقب قيام اسرائيل واعتراف موسكو بها على الفور . واما في مصر ، فلقد كان الحزب الشيوعي هنا ، — كما يقول لويس عوض — يعتبر « حرب فلسطين عام 1948 حربا استعمارية ، وان اسرائيل يمكن أن تكون قاعدة اشتراكية تشيع التقدم وكافة حقوق الانسان على الوطن العربي المحيط بها » . وتلك على العموم هي نظرة القادة السوفيات للقضية الفلسطينية آنذاك .

نعم ، لقد وقف الشيوعيون في الوطن العربي ، خلال بعض فترات من تاريخهم ، مواقف نضالية مشرفة ، الى جانب الجماهير العربية ، ولكن مواقفهم اللا قومية هذه ، قد أضرت بهم الى حد بعيد. كما أضر بهم ، بنفس الدرجة ايضا ، موقفهم من الاحزاب الوطنية واسلوب تعاملهم معها .

3 — تاكتيك التخريب من الداخل :

لقد ظلت نظرة القادة الشيوعيين العرب الى الحركات الوطنية والتقدمية نظرة ملؤها الحذر والارتياب . لقد تبنت نفس الموقف الذي اتخذته الاحزاب الشيوعية في أوروبا من المنظمات البورجوازية ، وكأن الظروف واحدة والمعطيات متشابهة . وهكذا فبدلا من التعاون مع الاحزاب الوطنية العربية باخلاص ضد الاستعمار ، راح الشيوعيون العرب يناصبون العداء لهذه الاحزاب ، ويدخلون معها في مجادلات واصطدامات متوالية . نعم لقد طرحت الاحزاب الشيوعية العربية غير ما مرة شعار « الجبهة الوطنية » ولكن مواقفها العملية كانت في معظمها مناقضة لهذا الشعار . لقد لجأت في خطتها الدفاعية الى أساليب مختلفة منها زرع العناصر داخل الاحزاب الوطنية قصد التشويش عليها ونسفها من الداخل ، وبعبارة موجزة لقد اعتمدت هذه الاحزاب

الاساليب الستالينية المعروفة والقائمة على العمل من اجل « شل مقاومة الخصم من الداخل » .

ان هذه الاساليب قد قدمت البرهان — مع الاسف — على « صحة » الدعاية الاستعمارية ، وبالتالى اضرت بالحركات الشيوعية العربية ضررا كبيرا وعرضتها او ساعدت على تعريضها لموجات متوالية من القمع والاضطهاد (2) .

4 — الفقر الفكرى : ولعل اقوى عوامل الفشل الذى اصاب الحركة الشيوعية العربية هو فقرها الايديولوجى الذى تسبب لها فى كل ما تقدم . فهى لم تحاول القيام بتحليل ملموس للواقع العربى الملموس ، بل ظلت سجينة النظرية الشيوعية العامة ، ولاستراتيجيتها وتاكتيكها ، كما تولبها ستالين . وهكذا راح معظم الشيوعيين العرب يفصلون فى اذهانهم الواقع العربى طبق فصول النظرية الجاهزة ، فى حين ان الموقف العلمى ، الموقف الماركسى السليم ، كان يتطلب التصرف ، فى اطار النظرية العامة ، طبقا لما تمليه شرائح الواقع الموضوعى الذى كان يرزح تحت وطاته — وما يزال — الوطن العربى ككل ، وكاقطار . لقد اغفلوا ، او قللوا من اهمية قضايا التحرر الوطنى ، قضايا النضال ضد الاستعمار ، ونظروا الى مشكل فلسطين ، لا على ضوء الشعور القومى ولا على ضوء التحليل العلمى للحركة الصهيونية ، بل نظروا الى مشكل فلسطين ، قبل الكارثة وخلالها ، على ضوء الستراتيجية السوفياتية ، كما انهم اهملوا ، او تجاهلوا الشعور الوحدوى لدى جماهير الشعب العربى . واكثر من ذلك لم يتبينوا حقيقة التخلف الذى عانت منه الاقطار العربية ، ولم ينظروا الى الاشتراكية بوصفها الحل الوحيد للخروج من التخلف ، بل ظلوا لفترة من الوقت سجناء النظرية العامة التى تربط قيام الاشتراكية ببلوغ الراسمالية درجة عالية من النمو وتفاقم تناقضاتها الداخلية ، ومن ثم ظلوا سجناء النظرة التى تربط تحرر شعوب الشرق بتحرر البروليتاريا فى الغرب .

كل هذه النقائص والاخطاء يمكن اجمالها فى العبارة التالية ، انهم لم يفعلوا ذلك لان شيوعيتهم — اى انتماءهم للشيوعية العالمية —

---

(2) يراجع فى هذا الصدد كتاب الياس مرقص : تاريخ الاحزاب الشيوعية فى الوطن العربى . دار الطليعة . بيروت . ط 1 . 1964 .

سبقت ماركسيتهم فاطرتها منـــذ البداية وسلبتها القدرة على التحليل العلمي الحر . ولذلك يفتقد الباحث ادبيات شيوعية عربية حول قضايا فلسطين والوحدة والنضال ضد الاستعمار ، اى يفتقد مواقف واضحة مبدئية وستراتيجية تهيمن فيها الخصوصية العربية .

كتب الاستاذ الياس مرقص ، وهـــو مناضل شيوعى قديم ، فى مقدمة كتابه « الماركسية فى عصرنا » ، كتب يصف حـــال الاحزاب الشيوعية العربية من الناحية الفكرية ، فقال : « تحت اسم الماركسية نشرت الاحزاب الشيوعية المحليـــة ايديولوجية غريبة جمعت الجمود العقائدى والذرائعية الانتهازية : تطبيق صيغ قديمة على اوضاع جديدة، اختيار النصوص لتبرير التقلبات المستمرة ، رفع النظرية الى مستوى اللاهوت ، وانزالها الى مستوى التكتيك الآلى ... اللينينية تجـرى دراستها فى ملخص ستالين الصادر عام 1924 ، قضايا النضال القومى تحلل انطلاقا مـــن تعريف ومن نظرية وضعت عام 1913 ، الفلسفة الماركسية تقوم على تكرار وشرح وتبسيط الجمل والعبارات الواردة فى الموجز الذى استخلصه ستالين عام 1938 من بعض مؤلفات ماركس وانجلز ولينين صدرت قبل عشرات السنين . والطابع العام المسيطر على الفكر والعمل : انفصال النظرية عن الممارسة ، وانفصال الممارسة عن النظرية » .

* * *

تلك لوحة ـــ قاتمة ولاشك ـــ عـــن مواقف الاحزاب الشيوعية العربية ومتاعها الفكرى . وسواء كانت هذه اللوحة تعبر عن الحقيقة مائة فى المائة أو كانت تنطوى على قليل او كثير من المبالغة ، فان ما سجل فيها يعبر عن موقف جديد ازاء الماركسية من جانب بعض الذين ناضلوا فى صفوف الحركـــة الشيوعية العربية . وجدة هـــذا الموقف بالنسبة لتطور الفكر العربى كامنة فى كونه ينتقد « ماركسية الاحزاب الشيوعية العربيـــة » انطلاقا ، لا من الدين ، ولا من الفلسفـــة البورجوازية ، ولا من الفكر القومى الصوفى ـــ الليبرالى ، بل ينتقدها انطلاقا من الماركسية ذاتها ، « ماركسية الاصول والمنابع » ، ماركسية ماركس وانجلز ولينين .

فما هو هـذا الموقف بالضبط ؟ ما هويتـه وما تطلعاته وامكانياته المستقبلية ؟

قبل الاجابة عن هذا السؤال لابد مـن الاشارة الى رافد آخر من روافد « الفكر الماركسى العربى المعاصر » . نقصد بذلك جانبا من جوانب الفكر القومى انتهى به التطور ، تحت ضغط الاحداث والتيارات الفكرية العالمية ، الى ما انتهى اليـه الماركسيون « الثائرون » على الاحـزاب الشيوعية العربية وقيادتها السائرة فى ركاب الستراتيجية العامة للحركة الشيوعية العالمية .

بدأ التيار القومى — كما هو معروف — متأثـرا بشعارات الثورة الفرنسيـة والافكار الليبرالية المهدة والمرافقة لها . فكان أول الامـر دعوة ليبرالية قومية ، ثم تحـول تحت ضغط الاحتلال الاستعمارى الى حركة وطنية امتزجت فيها الـى حدما الدعوة السلفيـة والاشتراكية الاصلاحية وبعض الافكار الليبرالية الراديكالية . ونقد تفرع عن هذا التيار — فيما بعد — وخاصة فى المشرق العربى، اتجاه أكثر جذرية ربط الاشتراكية بالوحدة سرعان ما انتشر فى صفوف الشباب والمثقفين . انه الاتجـاه القومى الوحدوى الاشتراكى الذى عرف كيف يتبنى بقوة وحماس أهداف الجماهير العربية ، القومية منها والسياسية والاجتماعية ، الشى الذى مكنه من استقطاب فئات عريضـة منها ، وبالتالى من تعميق جـذوره « وتأصيل » أفكاره وشعاراته .

ولكن هذا التيار الاشتراكى الوحدوى بقى مفتوحا لتأثير مختلف التيارات الفكرية الليبرالية الغربية ، الفلسفية منها والسياسية والاجتماعية (البرجسونية ، الوجودية ، الاشتراكية الفابية ، بعض الجوانب من الماركسية ، خاصة التأويلات اليوغسلافية ...) الشىء الذى جعله يبقى، كغيره من الاتجاهات الفكرية العربية الاخرى ، ذا طابع توفيقى ، يفتقد هو الآخر الى ايديولوجية متماسكة تحلل التجربة العربية تحليلا علميا، وترسم للمستقبل ، على ضوء هذا التحليل ، آفاق واضحة مبنية على اختيارات حاسمة وستراتيجية دقيقة محددة ، وهذا ما جعله يعانى من نتائج المواقف السريعة والمتقلبة التى جرته اليها الاحداث . فلقـد تحكمت فيه الاحداث أكثر مما تحكم فيها .

ولقد كان من نتائج هذا الخلل الايديولوجى وما رافقه من أخطاء سياسية ، خاصة فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، أن اتجه كثير

من الشباب والمثقفين القوميين الى الماركسية — بعد أن رفع عنها الستار الحديدى — يبحثون فيها على ما يساعدهم على اكتساب رؤية أوضح للواقع العربى وتطوراته الزاخرة بالمفاجآت والمتناقضات ، ولكن دون التخلى عن أفكارهم القومية وأهدافهم الوحدوية .

هكذا حدث اللقاء بين فريق « الماركسيين الذين اتجهوا اتجاها قوميا » وفريق « القوميين الذين اتجهوا اتجاها ماركسيا » ، وكانهم على موعد ، الاول يعزو فشل الشيوعيين العرب الى اغفالهم القضايا القومية، والثانى يعزو فشل القوميين القدماء الى اغفالهم الماركسية . وهكذا تكون من الفريقين معا ، تيار فكرى ينشد الاستقلال والاصالة ، ويبحث عن « ماركسية عربية » . واقد وجد هذا التيار الجديد فى كتابات بعض الشيوعيين الغربيين « المرتدين » كروجى كارودى ومكسيم رودنسون ، ما فتح أمامه آفاق « ماركسية جديدة » ؛ كما وجد فى الشباب الصاعد، شباب الكليات والمدارس قاعدة (غير منظمة ولا قارة) تردد اصداءه وتساهم فى الدعاية له . هذا الى جانب بعض الانظمة « التقدمية » العربية وبعض دور النشر « الملتزمة » التى ساعدته على التواجد والنشر .

والنتيجة التى اسفرت عنها هذه التطورات التى أوجزناها ، هى تلك الظاهرة التى انطلقنا منها ، بوصفها واقعا ملموسا ، ظاهرة انتشار الفكر الماركسى فى الوطن العربى وانحسار الشيوعية فيه كتنظيم حزبى بالمعنى التقليدى المعروف .

صحيح أن هذا التيار الذى يضم فى معظمه « الخارجين » عن التنظيمات الشيوعية الرسمية ، والثائرين على القيادات القومية التقليدية ، وبعض المثقفين الناشئين ، المرتبطين او غير المرتبطين بالاحزاب العربية على اختلاف مشاربها واهدافها ، لا يشكل ، او على الاصح ، لم يشكل لحد الآن ، تيارا منصهرا منسجما ، بل هو تيار عائم ، يمتد من « يسار » اليسار ، الى « يسار » اليمين . ولكن مع ذلك يمكن لـ « مؤرخ » المستقبل أن ينبين فيه ارهاصات لميلاد فكر ماركسى عربى أو « ماركسية عربية » ، كما يمكن للباحث الايبستيمولوجى أن يتبين فيما يكتبه وينشره « الناطقون » باسمه ، وما اكثرهم ، عناصر اساسية لما يمكن أن يطلق عليه : « اشكالية الفكر التقدمى العربى » ، عناصر تتمحور كلها حول مشكلة رئيسية واحدة ، ولكنها متشعبة معقدة،

هى المشكلة القومية . فما هى المعالم البارزة — فى الوقت الراهن — فى هذه الاشكالية .

* * *

تتمثل المشكلة القومية بالنسبة للفكر العربي التقدمى المعاصر فى جوانب عديدة ، متداخلة متشابكة ، يشكل كل منها مشكلا قائما بذاته : مشكلة النفوذ الامبريالى فى المنطقة العربية ، مشكلة فلسطين ، مشكلة التجزئة ، مشكلة الطبقات وصراعها ، مشكل الثقافة (الاصالة والمعاصرة) ، مشكلة الطريق الى الاشتراكية ... الخ. انها جميعا مشاكل مترابطة لا يمكن عزل الواحدة منهما عن الاخرى ، لا يمكن معالجة أى منها دون المساس بالباقي . ومن هنا مصدر الاشكالية التى تطرحها هذه المشاكل التى يمكن تلخيصها فى مشكل الوجود العربى الراهن بكل ما تتضمنه عبارة « الوجود العربى » من مضامين وابعاد .

وليس من مهمتنا هنا استعراض الحلول التى اقترحت ، وتقترح ، لهذا الخضم من المشاكل . فالحلول الحقيقية ، فى نظرنا ، لن تاتى من مجرد الاقتراحات أو التنظيرات المجردة ، بل ستصنعها الجماهير العربية بنضالها ويستشفها المثقفون العرب الذين يساهمون بشكل عملى فعال فى هذا النضال الذى بامكانه وحده أن يمدهم برؤية صحيحة دينامية للواقع العربى المتطور الزاخر بالحركة والتغيير . وكل ما نريد فعله الآن هو تسجيل ملاحظة نتبين من خلالها طبيعة المرحلة التى يجتازها الآن الفكر الماركسى العربى .

غنى عن البيان القول أن الامر يتعلق هنا بمرحلة الميلاد والتشكل، مرحلة البحث عن الطريق . وعلى الرغم من أن الحكم على مرحلة كهذه سيكون قطعا سابقا لاوانه ، وسيتعرض حتما لاخطاء من الصعب تبريرها ، فان هذا لا يمنعنا من ابراز بعض الجوانب السلبية ، عسى أن يكون فى ذلك ما يساعد على تبين الطريق الصحيح .

ان السمة البارزة الآن فى الفكر الماركسى العربى المعاصر ، فى مناقشاته لمختلف جوانب الاشكالية التى تواجهه ، هى انصرافه عن تحليل الواقع والاستشهاد به ، الى اقتطاف النصوص والمحاجة بها ،

الشيء الذى يترك انطباعا فى الملاحظ الخارجى بأن ما يدعى الآن بـ « الماركسية العربية » هى مجـرد « ماركسية » كلاميـة فقهية على الطريقة العربية الاسلامية القديمة . انها لم تخرج بعد من دائرة الجدال الكلامى الفقهى ، دائرة التفكير فى النصوص ومحاولة تاويلها بهذا الشكل او ذاك ، الى الهجوم على الواقع الموضوعى ، الواقع الملموس الذى عاشته وتعيشه الامة العربية بسلاح التحليل الديالكتيكى .

وهكذا فالدعوة الى « تعريب الماركسية » مثلا او الى ضرورة قيام « ماركسية عربية » لا تبرر بمعطيات الواقع العربى وخصوصياته بقدر ما تبرر بنقد الماركسية الستالينية وبضرورة الرجـوع الى « الاصـول والمنابع » حـول المسالة القومية ، واذا دعت الضرورة الى تاييد هذه الدعوى بامثلة تاريخية حسية مشخصة ، فان المرجع ، ليس الواقـع العربى ، بل انواع الواقع الغربى أو الشرقى الذى اسس عليه احـد مؤلفى « الاصول » رايه فى هذا الجانب أو ذاك من المشكلة القومية . نعم ان النقاش الايديولوجى ضرورى فى هذه المرحلة ، ولكن هذا النقاش لن يكون مجديا الا اذا كان يدور حول معطيات الواقع ، لا حول معانى النصوص .

ان غياب التحليل الموضوعـى الجـدى للواقع الملموس جعـل « الماركسيين العرب » يعالجون القضية القومية بمختلف أبعادها معالجة سطحية ، ان لم نقل مثالية . ان شعار « الوحدة العربية » ما زال يطرح بين صفوفهم بنفس الشكل الذى طرح ويطرح به فى أوساط القوى الوطنية الاخرى . فما زال هذا الشعار موضوعا للمزايدة ، وما زال المنطـق العاطفى بصيغه الحماسية هو السائد ، وما زال الخلـط بين الامكان الواقعى والامكان الذهنى ، بين ما يمكن فعله فى مرحلة ما فى التطور ، وما ينبغى أن يكـونّ فى نهاية المطاف . ان ضعف التحليل وسطحيته وتقديس النصوص كل ذلك يكسب الرؤية غموضا وتشويشا ، الشيء الذى يدفع الى الانتقال من موقع الى آخر بشكل عشوائى تعسفى . ان هذا هو ما يفسر أنواع التحالفات والعـداء للتى يقفها الماركسيون العرب ازاء بعضهم بعضا او ازاء هـذه الجهة أو تلك . ان تـوزع « السـولاء » وانتقاله من هذه الجهة الى تلك ، تحت ضغط ملابسات وقتية ، علامة ضعف ، ما فى ذلك شك . نعم انه نوع من البحث عن الطريق ... ولكن فى غوضى وارتجال .

وما قلناه بصدد « الوحدة العربية » يمكن قوله كذلك بالنسبة للقضايا الاخرى كقضية فلسطين ، والموقف من المعسكرين الاشتراكي والامبريالي . صحيح أن الاحداث التي يعيشها العالم العربي متزاحمة متداخلة يصعب تاطيرها ضمن منطق معين ، يصعب اكتشاف منطقها الداخلي نظرا لتداخل القوى الداخلية وتاثير القوى الخارجية تاثيرا مباشرا ... ولكن هذا كله لا يبرر الفوضى الفكرية والتنظيمية القائمة الآن في صفوف « الماركسيين العرب » .

هناك مقولة طفت مؤخرا على سطح الادبيات الماركسية « العربية » وهي تتخذ عند بعض الكتاب المتياسرين كخاتم سحري يحل جميع المشاكل . انها مقولة « البورجوازية الصغيرة » . ودون الدخول في مشادات كلامية حول هذه المقولة ، نكتفي بالقول انه مهما كان المضمون الذي نعطيه لهذه المقولة ، فانه لا شيء يبرر تحميل « البورجوازية الصغيرة » مسؤولية الفشل في هذا الميدان أو ذاك . ان التقلبات المتزاحمة المتلاحقة التي شهدها ويشهدها الوطن العربي هي أعمق من « تذبذب البورجوازية الصغيرة » العربية المزعومة . اننا لا ننفي وجود فئات عريضة من الشعب العربي يمكن أن تنطبق عليها بعض سمات البورجوازية الصغيرة ، ولا نقلل من الدور الذي تلعبه أو بامكانها أن تلعبه في هذا الاتجاه أو ذاك ، ولكن الاعتراف بوجودها ، وتحليل كيانها وخصوصيتها والدور الذي يمكن أن تلعبه ، أو الذي تلعبه فعلا ، وانواع التحالفات التي يمكن أن ترتبط بها ، شيء ، وتحميلها المسؤولية ، هكذا ، بشكل مجاني ، شيء آخر . انه موقف اختزالي يدل على الضعف والرغبة في الهروب الى الامام ، اكثر مما يدل على شيء آخر ، انه « تياسر » طفولي لا شيء يضمن عدم تحوله الى موقف يميني رجعي .

مثل هذه المواقف المتياسرة اللا مسؤولة تزيد من صعوبة المهمة الاساسية الملقاة على الماركسيين العرب ، مهمة النزول بالماركسية « العربية » من صعيد النظر والشعارات الجوفاء ، الى صعيد العمل والممارسة الخصبة ، من ضباب المناقشات اللفظية والمشادات الكلامية الى مجالات النضال الخاضع لاستراتيجية واضحة وتاكتيك مدروس .

لنجمل ما سبق فى القـــول ان اشكالية الفكـــر العربي الماركسى المعاصر ، هى مشكل دمـــج الماركسية كنظرية فى الذهنية العربية ، والماركسية كممارسة فى نشاط ونضالات الجماهير العربية .

ان دمج الماركسية كنظرية — لا بل كمنهج — فى الذهنية العربية ، مع الاحتفاظ لهذه الذهنية بمقوماتها والعمل على تطويرها ، يعنى تثوير الفكر العربى ، تثويره لا بالمناقشات والتحليلات المجردة ، بل بنشر الفكر العلمى الثورى المطبق ضمن تحليلات علمية للواقع العربى بجميع ابعاده التاريخية والاجتماعية والثقافية . ان الذهنية لا تتغير بالوقوف موقفا سلبيا « نقديـــا » من مكوناتها وتجلياتهـــا ، ولا بـــ « الالتزام الكلامى » ، بل بالتحليل الملموس على الواقع الملموس ، التحليل العلمى لشرائح الواقع العربى وتموجاته .

ان هذا التحليل هو وحده الذى سيرسم معالم الطريق نحو التغيير، وهو الذى سيكشف عن أداة هذا التغيير ، ويفتح بالتالى المجال لادماج الفهم العلمى للواقع فى ممارسة الجماهير العربية .

فهل سيتمكن الفكر العربى الماركسى من انجاز هذه المهمة المزدوجة فيحقق بذلك وجوده واصالته ؟

سؤال لا نستطيع الاجابة عنه فى الوقت الراهـــن ، الوقت الذى يتشكل فيه ما يمكن أن يسمى مستقبلا بـــ « الماركسية العربية » . ولكن اذا استطاع الفكر العربى « الماركسى » ان يقلل من انفعالاته ازاء الاحداث الوقتية والملابسات الظرفية ، واذا استطاع من جهة ثانية تجنب الانزلاق مع الانحرافات المتياسرة الطفولية التى اصبحت شبه موضة، والتى تلعب موضوعيا دور المشوش المخـــرب فى صفوف الحركـــات الوطنية الديمقراطية فى الوطن العربى ، فانـــه لاشك سيغدو قادرا على شق طريقـــه ، ولو ببطء ، نحو فهم أعمق لاشكالياته ، نحـــو « نظرية » فى الممارسة الفكرية والعملية للقضايا المطروحة على الوطن العربى ، قضايا التحرر والاشتراكية والوحدة .